المحاضرة العاشرة : المنظوم والمنثور :

مفهوم النثر :

في اللغة :

جاء في تهذيب اللغة : « النَّثْر: نَثْرك الشَّيء بِيَدِك تَرْمي بِهِ مُتَفَرِّقاً، مثل نَثْر الجَوز واللّوز والسُّكّر، وَكَذَلِكَ نَثْر الحبّ إذا بُذِر. وَهُوَ النِّثَار؛ يُقال: شَهِدْت نِثَارَ فُلان. قَالَ: والنَّثُور من النِّساء: الكثيرةُ الوَلَد.وَقد نَثَرت ذَا بَطْنها، وَقد نَثَرت بَطْنها. قَالَ: والنُّثَّارُ: فُتات مَا يَتَناثر حوالَي الخِوان من الخُبز وَنَحْو ذَلِك من كُلّ شَيْء. » [1]

وفي لسان العرب : « النُّثارُ، بِالضَّمِّ، مَا تَنَاثَرَ مِنَ الشَّيْءِ. ودُرٌّ مُنَثَّرٌ: شُدِّدَ لِلْكَثْرَةِ، وَقِيلَ: نُثارةُ الحِنْطة والشعيرِ وَنَحْوِهِمَا مَا انْتَثَرَ مِنْهُ. وشيءٌ نَثَرٌ: مُنْتَثِرٌ » [2]

وبهذا المعنى جاءت آي القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [3] وقوله كذلك : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [4]

من النقولات السابقة يتبين لنا أن النثر يطلق على رمي الشيء وبعثرته مفرّقا على غير نظام.

في الاصطلاح :

يقصد بالنثر عند عامة الدارسين قديما وحديثا أنه : « الْكَلَام الْجيد يُرْسل بِلَا وزن وَلَا قافية وَهُوَ خلاف النّظم » [5]، وبهذا القيد فقط يتبين لنا الفرق في الكلام بين النثر والنظم.

والنثر الفني – كما يقول محمد عبد المنعم خفاجي – : هو « من مظاهر الحضارة والرقي العقلي، وأثر من آثار العناية باللغة، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب، حتى يجد القارئ من اللذة مثلما يجد من يستمع إلى الشعر الجديد » [6]

والنثر مرتبط في عرف الدارسين والنقاد بالكتابة ♥ ؛ لأنه في الغالب يأتي مكتوبا، ليس كالشعر الذي ينشد ويروى شفويا، وفضل الكتابة معروفة، يقول عنها أبو جعفر الفضل بن أحمد كما نقله عنه القلقشندي : « الكتابة أسُّ الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرّقة من شجرة واحدة، والكتابة قطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفصل، وميزان يدل على رجاحة العقل. والكتابة نور العلم، وفدامة العقول وميدان الفضل والعدل. والكتابة حلية وزينة ولبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرّقة، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل

---

[1] – أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تح : محمد عوض مرعب، ج15، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 56.

[2] – ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب ،ج05 ، مرجع سبق ذكره، ص 191.

[3] – سورة الفرقان، الآية : 23.

[4] – سورة الإنسان، الآية : 19.

[5] – المعجم الوسيط، ج02، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، القاهرة، مصر، دط ، دت، ص 901.

[6] – محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1992، ص571.

♥ – لابد من التنبيه هنا إلى أن الكتابة في عرف القدامى تطلق ويراد بها في الغالب الأعم كتابة الإنشاء، والكاتب : هو المشتغل بالإنشاء، وكتابة الإنشاء كما يقول القلقشندي هي : « كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني: من المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات ومناشير الإقطاعات والهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها. » أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1922، ص84. وهذا الاصطلاح هو ما نجده في مؤلفات القدامى ككتاب أبي هلال العسكري : " **الصناعتين : الشعر والكتابة** "، وضياء الدين بن الأثير في كتابه : " **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** " ، وغيرهما.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية لأستاذ الدكتور طارق زياي

حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة؛ وبالكتابة والكتّاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونبلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة، ولو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربًّا لكل صنعة » [1]

إشْكَالِيَةُ ظُهُورِ النَّثْرِ الفَنِيِّ فِي الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عَدَمِهِ :

يرى البعض وعلى رأسهم طه حسين، عدم وجود نثر فني في الجاهلية، مبررا موقفه بحججٍ، أهمها : أن الحياة البسيطة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام ما كانت لتسمح لهم بقيام أي لون من ألوان النثر الفني، الذي يستحيل نشوؤه وازدهاره في ظل حياة العرب غير المستقرة؛ القائمة على النجعة والتنقل الدائمين، والنثر بطبعه محكوم بالروية، لأنَّه « لغة العقل والتفكير، لا يظهر عند أمة، من الأمم، إلا متى بلغت تلك الأمة درجة عالية من المدنية والحضارة، بخلاف الشعر، لغة العاطفة والخيال، فإنه يرافق الإنسان منذ طفولته الإجتماعية » [2]، ليصل في النهاية إلى نتيجة مفادها إنكار وجود نثر فني في العصر الجاهلي، يقول في هذا : « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال – مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه – أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنيٌّ، والذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن » [3] ولكن مع ذلك هو يثبت وجود نوع من النثر البسيط في الجاهلية الذي لا يمكن أن نصفه بالفنية والجمالية، وإنما هو وليد المعطى الاجتماعي والقبلي والسياسي مثل الخطابة والوصية والرسالة، ولكنه لم يصلنا لصعوبة روايته بسبب خلوه من الوزن والقافية، وضعف الذاكرة في حفظه وتثبيته.

وفي مقابل هذا الرأي هناك من يؤكد وجود نثر فني في العصر الجاهلي له خصائصه وقيمته الأدبية والفنية، مع إقرارهم أنَّ الكمَّ الكثير منه ضاع من أيدي العرب لصعوبة روايته ولندرة تدوينه، وقد اعتمد في هذا الترجيح إلى نقولات عن الأوائل منها ماورواه الجاحظ عن عبد الصمد الرقاشي قوله: « وما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره » [4].

زيادة على هذا أن النثر الفني كان موجودا عند أكثر الأمم التي جاورت العرب كالفرس والهنود والمصريين واليونانيين، فليس « بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثرٌ فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون، ثم لا يكون للعرب نثر فنيٌ، بعد الميلاد بخمسة قرون » [5]

أما الدليل الأقوى على وجود نثر فني في الجاهلية فهو القرآن الكريم، الذي يقدِّم صورة واضحة عن شكل هذا النثر وحالته، التي كان عليها قبل ظهور الإسلام، فلا يعقل أن يخاطب القرآن قوما إلا بأسلوب القول الشائع لديهم، وفي القرآن نص صريح على أن الرسول لم يبعث ﴿ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤].

هذا بالإضافة إلى أن كتب الأدب ومصادره قد حفظت لنا كثيرا منه كالأمالي والأغاني والبيان والتبيين والكامل...ولعل الحق في المسألة أن العرب كان لها نثر في الجاهلية « ضاع معظمه، لأسباب منه شيوع الأمية، وندرة التدوين، وميل الذاكرة عن حفظ المنثور إلى حفظ المنظوم » [6]، الأمر الذي انعكس على صعوبة تحديد بنياته التركيبية وسماته الأسلوبية، هذا بالإضافة إلى ما دخله من انتحال ووضع في عصور لاحقة (العصر الأموي بصفة كبيرة وبدايات العصر العباسي)؛ لأن العرب لم يعنوا بحفظ منثورهم، إلا ما علق في أذهانهم من نفائسه لبلاغته وإيجازه واشتهاره بين الناس، بخلاف الشعر؛ الذي كثر حافظوه وناقلوه شفاهة لسهولة حفظه لاعتماده الوزن والقافية كما أسلفنا، وهذا القليل المشكوك في صحة أكثره يمتاز بموافقته الطبع وجريانه على الفطرة اللغوية الشائعة عند العرب، فلا تكلف ولا تمحُّل ولا زخرفة فيه، فهو فخم

---

[1] – أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، مرجع سبق ذكره، ص 37 .

[2] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1986، ص 107.

[3] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط01، 2012، ص 26.

[4] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، تح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط07، 1998، ص 287.

[5] – زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص 36.

[6] – غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الرشاد، حمص، سوريا، ط01، 1992، ص539.

اللفظ قويه، حسن التركيب متينه، قصير الجمل، منوع الأسلوب، بعيد عن الترادف، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، واضح الفكرة فلا تعقيد ولا تركيب فيه، معانيه مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم، تكثر فيه الأمثال والحكم.

أما فيما يخص أغراضه، فقد كان يدعو إلى الانتقام والأخذ بالثأر، وإلى العصبية، أو يدعو إلى السلم والصلح وإصلاح ذات البين، وكان توصيفا للحياة في تقلباتها، في آلامها وآمالها، في حزنها وفي فرحها، في إقبالها وفي إدبارها ، وقد كانوا يتكلمونه معربا خاليا من اللحن، لما يملكونه من قوة السليقة، وقلة الاختلاط بالأعاجم، اللهم إلا ما تفردت به قبيلة عن أخرى بلهجات وهيئات الكلام كالترقيق والتفخير والقلب والإبدال والإمالة.

وهنا لابد من الإشارة إلى نقطة هي من الأهمية بمكان، ولعلها تزيل كثيرا من إشكالات وجود نثر فني من عدمه في الجاهلية، وهو أن العرب في الجاهلية هل كانت تفرق في كلامها بين الخطاب العالي (الذي نسميه نحن الآن النثر الفني)، وبين خطاباتها اليومية العادية، كما كانت تفرق بين كلامها وبين الشعر، وهو أن العرب جل كلامهم يدخل في النثر الفني الذي نعرفه نحن اليوم، يقول عز الدين إسماعيل مجيبا عن هذا التساؤل : « وحديث النثر ذو شعب، سواء فيما يتصل ببدايات النثر أو مراحله المتأخرة، ونقصد بالنثر الفني، تمييزا له عن النثر المتداول بين الناس في شؤون حياتهم اليومية.

ولكن هل الجاهليون هذه التفرقة ؟ أعني هل كانوا يفرقون بين حديثهم اليومي وغيره من الحديث ؟

الواقع أن الجاهليين قد التفتوا إلى الشعر، بوصفه صورة كلامية متميزة بشكلها ونظامها عن لغة الحياة اليومية، ولكنهم فيما يتصل بالنثر لم يفرقوا بين نثر فني وآخر عادي، فربما لم يخطر لهم أن النثر فن كلامي كفن الشعر، ولكن من المحتمل أنهم كانوا يدركون بعض الفروق التي تميز كلاما نثريا على كلام آخر؛ فكلام الكهان المسجوع كان له بلا شك وقع خاص في نفوسهم لأنه كان مخالفا لنمط الكلام الذي يتداولونه في حياتهم اليومية » [1] والأمر نفسه ينسحب على الأمثال والحكم التي كانت تصدر عنهم، والتي تعبر عن معان إنسانية وأخلاقية وجدت لها قبولا عندهم، بحيث إنهم حفظوها وتداولوها فيما بينهم، وأصبحت هذه الجمل تعبيرات فنية راقية تختلف عن كلامهم التواصلي المجرد.

كما لا ننسى الخطابة التي استطاعت أن تنافس الشعر في بعض المراحل الزمنية الجاهلية، والتي كانت شأنها شأن الشعر تعبر عن الروح الفردية والجماعية للعرب، والتي لم تقل أهمية عن سجع الكهان والأمثال، يقول عز الدين إسماعيل عنها : « ولكن هل كان نثر الكهان والأمثال هما المظهران الوحيدان لاستخدام اللغة النثرية استخداما فنيا خاصا ؟

الواقع أنه كان هناك مظهر آخر لا يقل عنهما شأنا، بل ربما كانت له أهمية خاصة تضارع الشعر نفسه، وأعني بذلك الخطابة. فقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي هي قمة البلاغة النثرية، وكان الناس لذلك يحفظونها ويروونها »[2]

فكأن العرب أدركوا المزية الشكلية لسجع الكهان القائم على الجرس الموسيقي والتوافق الإيقاعي بين نهايات الجمل، والمزية الدلالية للأمثال القائم على إصابة المعنى وموافقة الحق، والمزية القبلية للخطابة فأولوهم أهمية خاصة؛ فحفظوها ورووها لم بعدهم.

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ فِي التُّرَاثِ النَّقْدِيِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ :

لقد طرح النقاد القدامى والمحدثون هذه القضية، وأفاضوا القول فيها في مؤلفاتهم، بحيث لا تكاد تطالع كتابا نقديا، إلا وتلمح الإشارة إلى هذه القضية باقتضابٍ أو إسهابٍ، بل تلحظ تعصبا من بعضهم للنثر على حساب الشعر أو العكس، بحيث يسوق الأدلة والحجج في تغليب كفة على أخرى، يقول ابن الأثير مبيا الخلاف في هذه المسألة: « واعلم أن الأقوال متعارضة في تفضيل كل واحد من هذين القسمين

---

[1]- عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية (دراسة في نشأة الآداب والمعارف العربية وتطورها)، مطبعة الأديب، بغداد، العراق، ط01، 1972، ص 69 – 70.

[2]- المرجع نفسه، ص70.

على الآخر » [1]، ولعل من أوائل ما وصلنا عن طرح هذه القضية هو ما سأل عنه أحمدُ بن الواثق المبردَ : « أيُّ البلاغتين أبلغُ أبلاغة الشعر، أم بلاغة الخطب، والكلام المنثور والسجع ؟ وأيتها عندك- أعزك الله – أبلغ ؟ »[2] وقد اشتدَّ هذا الجدل ليس في بيئات النقاد فقط، بل حتى عند الفلاسفة والمتكلمين في القرن الرابع الهجري وما بعده، وقد ذكر لنا التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة والمقابسات طرفا منها، خاصة مع أبي سليمان المنطقي (ت380هـ)، وأبي إسحاق الصابي (ت383هـ)، وابن هندو الكاتب (ت 420هـ)، وفيما يلي سنحاول التطرق لهذين المذهبين مع ذكر أهم أدلة كل واحد منهما:

القَائِلُونَ بِأَفْضَلِيَّةِ الشِّعْرِ عَلَى النَّثْرِ :

يعدُّ أبو هلال العسكري من أوائل من أفصح وأبان عن موقفه من قضية المفاضلة بين الشعر والنثر لصالح الأول، وإن كان إفصاحه هذا هو تعبير عن قناعة أكثر العرب لمنزلة الشعر عندهم التي لا تضاهيها منزلة أخرى، وله في ذلك نصٌّ طويل مشبعٌ بفضائل الشعر ومزاياه، يقول فيه : « ومما يفضل به غيره أيضا طول بقائه على أفواه الرّواة، وامتداد الزمان الطويل به؛ وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض؛ وهذه خاصة له في كلّ لغة، وعند كلّ أمة؛ وطول مدة الشيء من أشرف فضائله، ومما يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس وبعد سيره في الآفاق؛ وليس شيء أسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال، وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر.

ومما يفضل به غيره أنه ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام؛ فكم من شريف وضع، وخامل دنيء رفع؛ وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب.

ومما يفضلهما به أيضا أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنيّة، ولا يهتزّ ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه؛ وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام، ومنه أنّ مجالس الظّرفاء والأدباء لا تطيب، ولا تؤنس إلّا بإنشاد الأشعار، ومذاكرة الأخبار؛ وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشعار؛ وهذا شيء مفقود في غير الشعر.

ومما يفضل به الشعر أن الألحان- التي هي أهنى اللّذات- إذا سمعها ذوو القرائح الصافية، والأنفس اللطيفة، لا تتهيّأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر؛ فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشريفة؛ إلّا ضربا من الألحان الفارسية تصاغ على كلام غير منظوم نظم الشعر، تمطّط فيه الألفاظ؛ فالألحان منظومة، والألفاظ منثورة.

ومن أفضل فضائل الشّعر أنّ ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها، وفحلها وغريبها من الشعر؛ ومن لم يكن راوية لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته.

ومن ذلك أيضا أنّ الشواهد تنزع من الشّعر، ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول صلّى الله عليه وسلّم شاهد، وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلّا من جملة أشعارها؛ فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها؛ فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدّب بلغة العرب أو ناظر في علومها [إليه] ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة » [3]

---

[1]- أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح : مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، 1956، ص 73.

[2]- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، تح : رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط02، 1985، ص80.

[3]- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1952، ص 137- 138.

وأما الجاحظ فلا نكاد نحصل عنده على رأي فصل في هذه القضية قصارى ما نجده عنده هو محاكمة النثر لمقاييس الشعر، يقول عبد السلام المسدي في هذه النقطة : « أما داخل هذا السلم [1] فإن الجاحظ يكاد يجعل من الشعر رمزا للخلق الأوفى، لذلك نراه يخصُّ نقد الأسلوب النثري ببعض المقاييس المستقاة من خصائص الحياكة الشعرية » [2]

وأيضا نجد ابن رشيق يسير في الاتجاه نفسه فقد عقد بابا في عمدته : " باب فضل الشعر" يقول فيه : « وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة » [3]

في النص السابق نجد أن ابن رشيق في مفاضلته بين النظم والنثر إن اتفقا في القدر والقيمة يرجع إلى النظم، وعلة هذه الأفضلية عنده منوطة بحكم العرف والعادة، وبظاهر التسمية؛ التي تجعل الشعر لا يُطال ولا يُقدر عليه، أما حكم العادة فواضح لما أشرنا إليه من منزلة الشعر في الضمير الجمعي للعرب منذ الجاهلية، والذي لا يحتاج لكثير بيانٍ، أما ظاهر التسمية فيرجع إلى حقيقة أن الشيء المنثور (المطروح على غير نظامٍ) لا يمكن أن يقاس بالشيء المنسق والمنتظم بطريقة مطردة، وقد شبه هذه الصورة للمنظوم والمنثور بالدر، يقول في ذلك : « ألا ترى أن الدرَّ وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يُؤمنْ عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع » [4]

ومما ذكره ابن رشيق كذلك في فضائل الشعر قوله : « ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين » [5]

وهذا كلام يعدُّ من تقاليد الشعراء في مدائحهم ومخاطباتهم، هكذا تعارفوا وتواضعوا عليه، وإن كان في بعض الخطابات النثرية ما للشعر من الخصائص السابقة الذكر، فليس هذا مدعاة للفخر في حد ذاته.

وممَّا يحسب للشعر كذلك – كما يقول ابن رشيق – أن « الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه، وحسبك ما حسن الكذب، واغتفر له قبحه » [6]، هذا كلام ليس محل اتفاق بين الناس، فهناك من يحظر الكذب مطلقا لا في الشعر ولا في غيره، ويراه داخلا في التوجه اللَّا أخلاقي الذي من خلاله ذمت النصوص القرآنية والنبوية الشعر.

ولم يخرج الحاتمي (ت388هـ) عن هذا التوجه حيث أعلنها صراحة تفضيله الشعر على النثر بقوله : « ووجدت البلاغة منقسمة قسمين: منظوماً، ومنثوراً، وأولى هذين القسمين بالمزية – والقدم للمتقدم– المنظوم، فإنه أبدع مطالع، وأنصع مقاطع، وأطول عناناً، وأفصح لساناً، وأنور أنجماً، وأنفذ أسهماً، وأشرد مثلاً، وأسير لفظاً ومعنى » [7]

---

[1] – يقصد الجاحظ بالسلم: الصياغة الفنية التي يتفرع عنها الخطاب الشعري والنثري، والتي يكتسب كل خطاب من خلالها كينونته الخاصة به.

[2] – عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط04، 1993، ص138.

[3] – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص19.

[4] – الصفحة نفسها.

[5] – المصدر نفسه، ج01، ص 22.

[6] – الصفحة نفسها.

[7] – أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، ج01، تح : جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط01، 1919، ص124.

ويعدُّ أبو حيان التوحيدي من القلة الذين تناولوا المفاضلة بين الشعر والنثر بتطويل وعرضٍ لأدلة كلا الفريقين، واستحضار لشواهد العلماء حول هذه القضية بما يجعل الكفة متساوية بينهما، من ذلك قول السلامي رابطا بين الشعر والغناء : « من فضائل النّظم أنّه لا يغنّى ولا يحدى إلا بجيّده ولا يؤهّل للحن الطّنطنة، ولا يحلّى بالإيقاع الصحيح غيره، لأن الطّنطنات والنّقرات، والحركات والسكنات لا تتناسب إلّا بعد اشتمال الوزن والنّظم عليها، ولو كان فعل هذا بالنّثر كان منقوصا، كما لو لم يفعل هذا بالنّظم لكان محسوسا، والغناء معروف الشّرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر النفع في معابثة الروح، ومناغاة العقل، وتنبيه النّفس، واجتلاب الطّرب وتفريج الكرب، وإثارة الهزّة، وإعادة العزّة، وإذكار العهد، وإظهار النّجدة، واكتساب السَّلوة، وما لا يحصى عدده » [1]

وهذا حقٌّ في ارتباط الغناء بالكلام الموزون والإيقاع المتناسق، إذ لو غاب مثل هذا عن الكلام أضحى الغناء سمجا نابيا عن الذوق السليم والطبع الرائق، وهذا دليل لا مطعن فيه، إلا أن يستقبح بعض الناس الغناء في ذاته تديُّنا أو طبعا.

ومن أدلة القوم كذلك محتجين للشعر على النثر قول بعضهم : إن « النثر لما كان سهلاً عند العرب هيناً، والنظم شاقاً عليهم مستصعباً، عمدوا إلى الأصعب وتركوا الأسهل؛ لأنهم إنما كان غرضهم إظهار قوتهم في البلاغة والفصاحة، وإذا كان ذلك فيما هو أشق مسلكاً وأوعر مذهباً، كان أدل على تمكنهم من الكلام. وأما النثر فما كان عندهم بمنزلة ما يرغبون فيه، ويتنافسون عليه؛ لسهولته عندهم! ولهذا لم يعتنوا به ويكثروا منه، كما فعلوا في النظم! »[2]

وذكروا دليلا آخر متعلقا بالذي سبقه؛ وهو أن القرآن الكريم نزل على العرب نثرا « ليكون آية لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومعجزة على يده، ليفحم به أولئك الفصحاء والبلغاء من العرب، لأنهم كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة، وحيث كان النثر سهلاً عندهم يسيراً عليهم أنزل الله تعالى القرآن على أسلوبه ليعجزهم، بما هو أسهل عليهم من غيره، ليكون ذلك أعظم في الإعجاز » [3]

ويستدرك ابن الأثير عن الدليلين السابقين بردٍّ يبطل فيه القول بأن سهولة النثر عن العرب ونزول القرآن نثرا إعجازا للعرب بأن يأتوا بخطاب يحسنونه من جنس خطابهم؛ إذ لو تحدَّاهم بالأصعب عندهم لم يكن أبلغ في الإعجاز، وذلك في قوله : « فالجواب عن ذلك أنا نقول: قد ثبت أن المعجزات التي على أيدي الأنبياء – صلوات الله عليهم – لم تأت ممَّا كان سهلاً على أممهم، لأنهم إنما جاءوا بإحياء الأموات، وانشقاق البحر وانفجار الماء من الحجر، وما جرى هذا المجرى، وهذا الحكم أيضاً موجود في النثر، فإنه لما كان شاقاً على العرب، وليس فيهم من يقدر على الإتيان به إلا القليل، أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نهجه وطريقة، لتكون المعجزة مناسبة لما جاءت (فيه). وذلك أن النثر من حيث ذاته أمر شاق مستصعب، وانضاق إلى ذلك كونه من عند الله تعالى فصار معجزاً بالضرورة » [4]

وأما قول بعضهم محتجا للشعر : « من فضل النَّظم أنَّ الشّواهد لا توجد إلّا فيه، والحجج لا تؤخذ إلَّا منه، أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنحويّين واللّغويّين يقولون: « قال الشاعر» ، و«هذا كثير في الشّعر» ، و« الشّعر قد أتى به » ، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجّة، والشعر هو الحجّة » [5] فقول مبالغ فيه، فالشواهد كما جاءت في الشعر جاءت كذلك في النثر، وخير شاهد القرآن والسنة وأقوال علماء والحكماء والزهاد وغير ذلك.

ومن الأدلة كذلك قول الخالع : « للشّعراء حلبة، وليس للبلغاء حلبة، وإذا تتبّعت جوائز الشّعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء وولاة العهود والأمراء والولاة في مقاماتهم المؤرّخة، ومجالسهم الفاخرة، وأنديتهم المشهورة، وجدتها خارجة عن الحصر، بعيدة من الإحصاء، وإذا

---

[1]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1424هـ، ص 252.

[2]– أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص 74.

[3]– الصفحة نفسها.

[4]– المرجع نفسه، ص 75.

[5]– المرجع السابق، ص 74.

تتبّعت هذه الحال لأصحاب النّثر لم تجد شيئا من ذلك، والناس يقولون: ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشّعر ! ولا يقولون: ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النّثر! وهذا لغنى الناظم عن النّاثر، وفقر الناثر إلى الناظم »[1]

الملاحظ أن الشق الأول من المقولة فيه مغالطة واضحة، وهي أن حظوة الكتاب لدى الخلفاء والأمراء لا تقل شأوا عن الشعراء، ويمكن أن تفوقها في بعض الأحيان، بحيث إن منهم من كان مقدما ومنادما بل ووزيرا لدى أولي الأمر وما ابن العميد وعبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون ويحي البرمكي وغيرهم عنا ببعيد، يقول ابن الأثير في هذا الصدد : « إن الناثر تعلو درجته حتى ينال الوزارة للخلفاء والملوك، وأما الشاعر فلا تعلو درجته عن رتبة المستعطين، ومنزلة الطالبين لما في أيدي الناس. ولولا فضل النائر وما عرف من شرف صنعته والحاجة إليها، لما رقي إلى درجة الوزارة. وكذلك الشاعر؛ فلولا كساد صنعته والاستغناء عنها، لعلت درجته وارتفعت منزلته »[2]

أما الشق الثاني فحقٌّ إلا أن غنى النظم عن النثر لا يغضُّ منه، لأن العرف العربي سار على هذا، وإلَّا فإنَّ لكل واحد منهما خصائصه المميزة التي تجعله يفضل بها قسيمه.

هذا وقد عقد أبو حيان التوحيدي المقابسة الستين بعنوان :" في النثر والنظم وأيهما أشد أثراً في النفس "، نقل فيها كلاما عن أبي سليمان المنطقي مفضلا النظم على النثر قوله : « وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدل على الطبيعة؛ لأن النظم من حيز التركيب، والنثر أدل على العقل؛ لأن النثر من حيز البساطة. **وإنما تقبلنا المنظوم** بأكثر مما تقبلنا المنثور لأنَّا للطبيعة أكثر منا بالعقل، والوزن معشوق للطبيعة والحس؛ ولذلك يفتقر له عند ما يعرض استكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا حظ للفظ عنده وإن كان متشوقاً معشوقاً. والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة؛ أن المعنى متى صور بالسانح والخاطر وتوفي الحكم لم يبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف. لكن العقل مع هذا يتخير لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم. وليس هذا للطبيعة؟ بل الذي يستند إليها ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخلوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل »[3]

ومن طريف أدلة أنصار الشعر أنهم ذكروا قول الناس :« ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشّعر، ولا يقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر، لأنّ صورة المنظوم محفوظة، وصورة المنثور ضائعة »[4]

يقول طه حسين : « فأما الشعراء وأنصارهم فزعموا أن الشعر خير من النثر؛ لأن الشعر يكلف صاحبه، عندما يتكلفه: القافية والوزن، ، ثم مضوا إلى أبعد من هذا، رأوا أن الشعر أفضل من النثر؛ لأنه ديوان العرب، وفيه قُيِّدت مفاخرهم، وإليه يرجع الفضل في تخليد ما لهم من فضائل قديمة. ثم مضوا إلى أكثر من هذا في أنه أفضل؛ لأن الشعر يلائم الموسيقى، ثم لأنه موضوع الغناء، فهو مصدر اللذة الغنائية والموسيقية معا »[5]

القَائِلُونَ بِأَفْضَلِيَّةِ النَّثْرِ عَلَى الشِّعْرِ:

من العجيب أن يرى الدارس للنقد العربي القديم انصرافا شبه كامل عن دراسة النثر في مختلف العصور الأدبية، واتجاهها صوب الشعر دراسة لم تترك فيه صغيرة ولا كبيرة – تقريبا – إلا تناولتها، ولعل السبب إجمالا يرجع إلى مركزية الشعر في الوجدان العربي، وفي المؤسسات الرسمية، واعتبار غيره من الكلام لا يعدو أن يكون فرعا عن أصل، وفاضلا من مفضول، خاصة وأن النثر في تلك الحقب كان يُنظر إليه بوصفه خطابا يعبِّر عن حقول معرفية؛ علمية ودينية وسياسية، لا أنه يحمل في ذاته مقومات أدبية وفنية، بل إن كثيرا من الخطابات النثرية كالقصص

[1]– الصفحة نفسها.
[2]– المرجع نفسه، ص 75.
[3]– أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تح : حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط02، 1992، ص 245.
[4]– الصفحة نفسها.
[5]– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 24.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زيناي

والملح والنوادر والمقامات، كانت أقرب لاهتمامات السوقة والطبقات الدنيا منها إلى الطبقات المثقفة، وبلاطات الخلفاء والأمراء، ولهذا ضرب عليها العقل العربي صفحا، إلا عند مؤلفين يعدون على أصابع اليد ممن تناولوا جزءا من الكتابة النثرية ممثلة في صفة أساسية في الرسائل والتوقيعات والمناظرات، ومع كل هذا فإن كثيرا من النقاد المعروفين قد نوهوا إلى أهمية النثر، بل وبالغوا في الاحتفاء به، وبأصحابه، وسنحاول في هذا العنصر التطرُّق لمجمل ما قاله القوم :

يرى ابن الأثير أن المذهب القائل بأفضلية النثر على الشعر يفوق كثرة ودليلا القائلين بأفضلية الشعر على النثر، يقول في هذا : « إلا أن المذهب الفحل والقول القوي هو أن الكلام المنثور أفضل من الكلام المنظوم » [1]

ما يجعل الأمر غير مفصول فيه، وغير مترجحة فيه كفة على أخرى، وقد أجمل أبو عائذ الكرخي كما روى عنه أبو حيان التوحيدي فضائل النثر بقوله : « النّثر أصل الكلام، والنّظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكلّ واحد منهما زائنات وشائنات، فأما زائنات النّثر فهي ظاهرة، لأنّ جميع النّاس في أوّل كلامهم يقصدون النّثر، وإنما يتعرضون للنّظم في الثاني بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معيَّن » [2]

هذا وقد أورد ابن رشيق طائفة من براهين القوم واستدلالاتهم، ولما كان هو من أنصار النظم فقد حاول الردَّ عليها وإبطالها، من ذلك إيراده قول أحدهم : « إن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي صلى الله عليه وسلم غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ ويرى أنه قد أبلغ في الحجة، وبلغ في الحاجة، والذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك » [3]

وهذه الحجة ذكرها كذلك أبو عائذ الكرخيّ في سياق المفاضلة بين الشعر والنثر، يقول في ذلك : « ومن شرفه أيضا أنّ الكتب القديمة والحديثة النازلة من السّماء على ألسنة الرّسل بالتّأييد الإلهيّ مع اختلاف اللّغات كلّها منثورة مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض، هذا أمر لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يعترض عليه بما يحرضه » [4] وذكرها أيضا القلقشندي في معرض تفضيله النثر على الشعر بقوله : « وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه، ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزّهه عنه بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾، وحرّم نظمه على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم تشريفا لمحلّه وتنزيها لمقامه منبها على ذلك بقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ »[5] وفي السياق نفسه ينقل أبو حيان التوحيدي عن ابن كعب الأنصاري قوله : « من شرف النّثر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم ينطق إلا به آمرا وناهيا، ومستخبرا ومخبرا، وهاديا وواعظا، وغاضبا وراضيا، وما سلب النّظم إلا لهبوطه عن درجة النّثر، ولا نزّه عنه إلا لما فيه من النّقص، ولو تساويا لنطق بهما، ولما اختلفا خصّ بأشرفهما الّذي هو أجول في جميع المواضع، وأجلب لكلّ ما يطلب من المناف » [6]

وهذا هو الوجه الأول من استدلالات ابن الأثير على أفضلية النثر يقول في ذلك : « القرآن الكريم ورد نثراً، ولولا فضله وعلو درجته، لما نزل كتاب الله – عز وجل – على أسلوبه ونهجه، وأيضاً، فإن القرآن معجزة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن المعلوم أن المعجزات لا

---

[1]– أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص 73.

[2]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

[3]– ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 20– 21.

[4]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

[5]– أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، مرجع سبق ذكره، ص90.

[6]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 251.

تجيء إلا من طريق الأصعب، بحيث إنه لا يمكن أحداً من خلق الله الوصول إليها، والإتيان بمثلها. ولما كان النثر من الأقوال الشاقة، والأشياء المتصعبة، أنزل الله تعالى القرآن، الذي هو معجزة على قانونه » [1]

وهذه الحجة مع مقبوليتها وأنها تجسد واقعا مفروضا، إلا أن لها تخريجا آخر يظهر أن مناط الاستدلال بأفضلية النثر منقوض باعتبار أن القرآن الكريم إذا اتفقنا أنه أعجز الشعراء وهو ليس شعرا، « كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنثور ليس كذلك » [2] فليس نزول القرآن على النبي صلى الله عليه نثرا غضا من رسول الله كونه ليس شاعرا، إذ لو كان الأمر كذلك « لكانت أميته غضاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد » [3]، وقد ذكر ابن فارس العلة في عدم كون النبي صلى الله عليه وسلم شاعرا بقوله : « فإن قال قائل: فما الحِكمةُ فِي تنزيه الله جل ثناؤه نبيه عن الشعر؟ قيل لَهُ: أوّل مَا فِي ذَلِكَ حكم الله جلّ ثناؤه بأنّ: ﴿ الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ثُمَّ قال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– وإن كَانَ أفضل المؤمنين إيماناً وأكثر الصالحين عَمَلاً للصالحات فلم يكن ينبغي لَهُ الشعر بحال، لأن للشعر شرائط لا يُسمى الإنسان بغيرها شاعراً، وذلك أن إنساناً لَوْ عَمِلَ كلاماً مستقيماً موزوناً يتحرّى فِيهِ الصدق من غير أن يُفْرِط أَوْ يتعدَّى أَوْ يمين أَوْ يأتي فِيهِ بأشياء لا يمكن كونها بتَّةً لما سمّاهُ الناسُ شاعراً ولكان مَا يقوله مَحْسولاً ساقطاً.

وَقَدْ قال بعض العقلاء وسُئِل عن الشعر فقال: "إن هَزَلَ أضحكَ، وإن جَدَّ كَذَبَ" فالشاعر بين كَذِب وإضحاك، فإذا كَانَ كذا فقد نزّه الله جلّ ثناؤه نبيَّه –صلى الله عليه وسلم– عن هاتين الخِصْلتين وعن كل أمر دنيء، وبعد فإنّا لا نكاد نرى شاعراً إلاَّ مادِحاً ضارعاً أَوْ هاجياً ذا قذع، وهذه أوصاف لا تصلُح لنبي » [4]

ومعلوم أن سبب عدم نزول القرآن شعرا هو سدُّ لذريعة اتهام المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم أن الذي نزل عليه إنما هو شعر من جنس ما كانوا يحسنونه، ولهذا جاء القرآن بخطاب مفارق لما ألفه العرب، فما هو بنثر بيِّن ولا هو بشعر، يقول طه حسين – في اجتهاد أظنه لم يسبق إليه – مصنِّفا الكلام الأدبي ثلاثة أنواع لا نوعين كما هو مشهور : « ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثرا، كما أنه ليس شعرا، إنما هو قرآن ولا يمكن أن يُسمَّى بغير هذا الاسم، ليس شعرا – وهو واضح– فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا؛ لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو ليس شعرا ولا نثرا، ولكنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾، فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر، كما نصَّ هو على أنه ليس شعراً » [5]

ولم يخرج المرزوقي عن هذا السياق ففضَّل النثر على الشعر؛ وذكر « أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء، موجبه تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب » [6] وأرجع ذلك لسببين هما [7]:

أولا : أن حكام العرب وملوكهم في الجاهلية كانوا يرون في الخطابة مبعث الفخر والاعتزاز، « ويعدونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة » [8] وكانوا يرون أن الخطيب في مواقف الصلح أو المنافرة وقد حسنت بديهته في الاقتضاب، وأجاد في إطالته الخطبة في الإسهاب،

---

[1]– أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص73.

[2]– ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج01، مصدر سبق ذكره، ص21.

[3]– الصفحة نفسها.

[4]– أبو الحسن أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1997، ص 211 – 212.

[5]– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 26– 27.

[6]– أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 16.

[7]– يُنظر: المصدر نفسه، ج01، ص 16 – 18.

[8]– المصدر نفسه، ج01، ص16.

مع مراعاة الصفات التي يجب أن يكون عليها في تليين الصوت وتخشينه، وارتقاء منبر أو نحوه أبلغ من إنفاق المال الوفير، وتجهيز الجيش الكبير، وفي مقابل ذلك كانوا يرون أن قرض الشعر دناءة ومسقطة للمروءة، ويأنفون أن يشتهروا بذلك.

ثانيا : أن الشعر اتُّخذَ مكسبة، ومدح به السوقة من الناس، كما مدح به العلية منهم، وتسرعوا من خلاله للأعراض، « فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم، والكريمَ عند تأخر صلته بصفة اللئيم » [1]

ويذكر أبو عائذ الكرخي مقايسة بين الشعر والنثر أوردها المحتجون للثاني على الأول وذلك في قوله : « ألا ترى أنّ الإنسان لا ينطق في أوّل حاله من لدن طفوليّته إلى زمان مديد إلا بالمنثور المتبدّد، والميسور المتردّد، ولا يلهم إلا ذاك، ولا يناغي إلا بذاك، وليس كذلك المنظوم، لأنه صناعيٌّ، ألا ترى أنّه داخل في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقّي الكسر، واحتمال أصناف الزّحاف، لأنّه لما هبطت درجته عن تلك الرّبوة العالية، دخلته الآفة من كلّ ناحية » [2]

ومما يمكن أن يردَّ به أصحاب أفضلية الشعر على هذه الفكرة أن أصحابها لم يفرقوا بين النثر الفني المقصود بالمفاضلة بينه وبين الشعر، وبين النثر اليومي العادي، فالإنسان في طفولته أول ما يتكلم إنما يتكلم بالنثر العادي الذي لا فضيلة له في نفسه، أما قولهم : إن الشعر صناعيٌّ محكوم بقيود الوزن والتأليف، ويدخله الكسر وتصيبه الزحافات، فهي تعدُّ فضيلة لا منقصة؛ لأن البارع في صناعة الشعر الآخذ بعين الاعتبار المعطيات السابقة يمدح بها، لا يذمُّ عليها، فالنثر وإن كان صناعة كالشعر، إلا أن النثر مقدور عليه في الغالب، بخلاف الشعر الذي يتطلب ملكة ودربة وتعلما، وهذا ما ذكره السلاميُّ في قوله : « من فضائل النّظم أن صار لنا صناعة برأسها، وتكلّم الناس في قوافيها، وتوسّعوا في تصاريفها وأعاريضها، وتصرّفوا في بحورها، واطّلعوا على عجائب ما استحزن فيها من آثار الطّبيعة الشّريعة، وشواهد القدرة الصادقة، وما هكذا النّثر، فإنّه قصّر عن هذه الذّروة الشّامخة، والقلّة العالية، فصار بذلك بذلة لكافّة الناطقين من الخاصّة والعامّة والنساء والصّبيان » [3]

ولكن الزعم بسهولة النثر بالقياس إلى الشعر باعتبار الأخير صناعة مركبة تستلزم جملة من الأمور الفطرية والعلمية ينتقض بقول ابن الأثير : « وممَّا يدلك على أن النثر أشق من النظم، وأصعب مأخذاً، هو أن العرب كانوا أفصح الناس، وأبلغهم وأكثرهم قدرة على التفنن في الكلام، زعم هذا فلم نسمع لأحد منهم نثراً، إلا قس بن ساعدة، الذي يضرب بكلامه المثل في الفصاحة والبلاغة، ولأقوام آخرين وهم قليل، وأما النظم، فإن جميع العرب كانوا يقولونه وكان عليهم من أسهل الأشياء حتى على نسائهم » [4] حيث إن المطالع لما قيل شعرا لا يكاد يستطيع حصره في عصر أو مصر واحد، فما بالك في مختلف الأعصار والأمصار، والشيء كلما كثر رخص وقلة قيمته، إذ « من المعلوم أن الإنسان إذا كان مكثراً من شيء أستدل بذلك على قدرته عليه، و (عدم) قصوره عن الوصول إليه » [5]

ويقول القلقشندي مبرزا أفضلية النثر على الشعر : « اعلم أنّ الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، (...)، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاما، وأحسن نظاما، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير

---

[1]- المصدر نفسه، ج01، ص16-17.

[2]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

[3]- المرجع السابق، ص 251 – 252.

[4]- أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مرجع سبق ذكره، ص73.

[5]- المرجع نفسه، ص 74.

ذلك مما تلجىء إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطّت رتبته »[1]

ويضيف أسبابا أخرى متعلقة بالشعر ومعايبه، وبالنثر ومحاسنه وذلك في قوله : « وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة، والصفات المجاوزة للحدّ، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزّور، وقول البهتان، وسبّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأفحله. بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخطب والترسّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخطب كلام مبنيّ على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والتذكير والترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصّلاح والإصلاح، والحث على التعاضد والتعاطف، ورفض التباغض والتقاطع، وطاعة الأئمة، وصلة الرحم، ورعاية الذمم، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى مما هو مستحسن شرعا وعقلا »[2]

إن النص السابق فيه مغالطات واضحة؛ حيث إن القلقشندي جعل كثيرا من مضامين الشعر المستقبحة دليلا على علو كعب النثر عليه، وهذه المضامين جلها أو كلها موجودة في النثر كذلك لا يمكن أن يبرأ منها، وما ذكره من مضامين مستحسنة للنثر، فللشعر منها نصيب، والأغراض الشعرية كالزهد والتصوف والمولديات وشعر الحكمة وإصلاح ذات البين أشهر من أن تذكر.

ويضيف أبو عائذ الكرخيّ دليلا آخر يحتج به أنصار هذا الرأي وهو« أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصَّفاء أقرب، ولا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشيء وبقائه، وبهائه ونقائه »[3] ونحن لا ندري ما المقصود بهذه الوحدة، هل هي وحدة الغرض؟ أم وحدة البناء الشكلي؟ أم وحدة الصناعة الفنية من أوله إلى آخره؟ ولعلَّ كل ما ذكر الشعر أيضا له منها حظ قلَّ أم كثر.

وممن يفهم من كلامهم تفضيل النثر على الشعر واقتناعهم به ابن شُهيد، وإن كان يعجبه الشعر وذلك في قوله : « تذاكرتُ يوماً مع زُهير بن نُميرٍ أخبار الخُطباء والشعُّراء (...) فقال لي: حللتَ أرض الجن أبا عامر، فبمن تُريدُ أن نبدأ؟ قلتُ: الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشوق »[4]

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى الكُلاعي الذي عقد فصلا في كتابه : " **إحكام صنعة الكلام**" عرض فيه لقضية : الترجيح بين المنظوم والمنثور، حيث رجح كفة النثر على الشعر، يقول : « إن الترجيح بين المنثور والمنظوم يمٌّ قد خاض فيه الخائضون، وميدان قد ركض فيه الراكضون. ورأيي أن القريض قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، صار بها أبدع مطالع، وأصنع مقاطع، وأبهر مياسم، وأنور مباسم. وأبردُ أُصُلا، وأشرد مثلا، وأهزَّ لعطف الكريم، وأفلَّ لغريب اللئيم. لكن النثر أسلم جانبا، وأكرم حاملا وطالبا »[5]

وبعد هذا الكلام أورد مجموعة من الحجج التي ترجح كفة النثر على الشعر، منها :

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زيناي

[1]– أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج01، مرجع سبق ذكره، ص 89.

[2]– المرجع السابق، ج01، ص91.

[3]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 250.

[4]– أبو عامر أحمد بن شُهيد الأندلسي، التوابع والزوابع، تح: بطرس البستاني، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، ط02، 1996، ص 87.

[5]– أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح : محمد رضوان الداية، دار الثقافة، لبنان، ط01، 1966، ص 36.

- حديث : « لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » [1]، فهو « لم يقل كتابة ولا خطابة؛ لأن الشعر داع لسوء الأدب، وفساد المنقلب، لأنه – لضيقه وصعوبة طريقه – يحمل الشعر على الغلوّ في الدين، حتى يؤول إلى فساد اليقين » [2]
- شيوع الكذب في الشعر، وينقل عن أحد البلغاء قوله : « إياك والشعر فإنه يطلب على الكذب مثوبة » [3]
- نذالة وخسة الشاعر خاصة إذا كان عبدا، حيث إنَّ حظ أهله منه، إن شبع تغزل بنسائهم، وإن جاع هجاهم.
- والشعر بريد الغناء والغناء بريد الزنا، يقول في هذا : « ومن معايب الشعر ما فيه من الوزن، لأن الوزن داع للترنم، والترنم من بابا الغناء، وقد قال بعضهم : الغناء رقية الزنا، وقد الكنديُّ : الغناء برسام حادٌّ؛ لأن المرء يسمع فيطرب، ويطرب فيسمح، ويسمح فيعطي، فيعطي فيفتقر، ويفتقر فيغتم، ويغتم فيمرض، ويمرض فيموت » [4]

وقد أجمل طه حسين أدلة القائلين بتفضيل النثر على الشعر بقوله : « ولم يقصر أنصار النثر في الاحتجاج لفنهم، فقالوا: لا ننكر ما للشعر من فضل ومزية، ولكن نرى أن النثر أفضل منه؛ لأنه يفي بضروريات الحياة، ولأن الشعر لا يكون فنًّا من فنون اللهو، ورأوا أن النثر لغة السياسة ولغة الدين ولغة العلم، وإذن فقد يكون الشعر ذا مكانة، ولكن النثر أشد مساسا بحاجات الإنسان، وأشد اتصالا بما يتجه إليه؛ وإذن فالنثر أفضل من الشعر، وزادوا على هذا أن الشاعر ينشد واقفًا، على حين أن النَّاثر يستطيع أن يتكلم واقفًا أو جالسا » [5]

خُلَاصَةُ القَوْلِ فِي المُفَاضَلَةِ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ :

ولعلَّ الرأي الوسط في هذه المسألة هي أن لكل من النثر والشعر ما يميزه، وأنهما – بالنظر إلى المحاسن التي ذكرت – يستويان فنَّين لهما أهميتهما الأدبية والاجتماعية والفكرية، وأنهما جاءا استجابة للرَّاهن العربي في كل زمان مكان، وأنهما عكسا واقع البيئة العربية، يقول الخالع مبينا خلاصة القول فيهما : « فإذا كان الأمر في هذه الحال على ما وصفنا فللنثر فضيلته الَّتي لا تنكر، وللنّظم شرفه الّذي لا يجحد ولا يستر، لأنّ مناقب النّثر في مقابلة مناقب النّظم، ومثالب النّظم في مقابلة مثالب النّثر، والذي لابدّ منه فيهما السّلامة والدّقّة، وتجنّب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص » [6]

وإلى هذا الرأي يذهب ابن المقفع الذي جعل البلاغة هي المشترك الفني بين الشعر والنثر، فهما وإن اختلفا شكلا، فوصف البلاغة يشملهما معا، فقد سئل عن البلاغة، فقال : « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل ... » [7] وهذا المعنى قرره كذلك أبو سليمان المنطقي في قوله : « البلاغة ضروب: فمنها فمنها بلاغة الشّعر ومنها بلاغة الخطابة ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل » [8]

إذن فالنقاش حول هذه القضية المفاضلة بين الشعر والنثر هو نقاش مع أهميته إلا أنه لا يقدم جديدا فيما يخص حقيقتهما، فلكل واحد منهما طبيعته وخصائصه ووظائفه وحدوده المائزة، وإن كان في الحقيقة ليس هناك اختلاف فيما بينهما إلا في الوزن والقافية كما يرى أحمد

---

[1]– محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج08، مرجع سبق ذكره، ص 36، الحديث رقم [6154]، رواه كذلك مسلم والترمذي وأبو داوود وابن ماجه وغيرهم...

[2]– أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، مرجع سبق ذكره، ص 36 – 37.

[3]– المرجع نفسه، ص 37.

[4]– المرجع نفسه، ص 38 – 39.

[5]– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سبق ذكره، ص 24.

[6]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 253.

[7]– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص115- 116.

[8]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 254.

حقوق تأليف هذه المحاضرات محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زياي

أحمد بدوي، وذلك في قوله : « إن النقاد لم يكونوا ينظرون إلى أن هناك فاصلا يحجز بين الشعر والنثر من حيث حقيقتهما الفنية، وأنهما كلام يُصاغ للتأثير في نفس سامعه وقارئه، اللهم إلا الوزن والقافية، فالمعاني التي صاغها الشعر يستطيع النثر أن يصوغها كذلك، والاستعارات التي يستخدمها الشعر، يستخدمها النثر أيضا، والتشبيه المصيب في الشعر، هو مصيب في النثر كذلك، ومن هنا تتشابه اللغتان : لغة الشعر، ولغة النثر، حتى لا يفرق بينهما إلا ما يمتاز به الشعر : من وزن دقيق، وقافية ملتزمة » [1]

إن الملاحظ لما جاء عند بعض النقاد القدامى يدرك وصولهم إلى مفهومٍ مبكر للشعرية كما طرحها النقد المعاصر، حيث تكلموا عما يصير به النثر نثرا والشعر شعرا، وهو اتصاف أحدهما ببعض صفات الآخر، يقول ابن هندو الكاتب: « إذا نظر في النظم والنَّثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطّلاع على هواديهما وتواليهما كان أنَّ المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنّهما يستهمان هذا النّعت لما ائتلفا ولا اختلفا » [2]

وقد شرح أبو حيان التوحيدي هذا المعنى بقوله : « أحسن الكلام ما رقّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم، يطمع مشهوده بالسّمع، ويمتنع مقصوده على الطّبع » [3]

وهو ما قاله أبو سليمان المنطقي كذلك : « ومع هذا ففي النثر ظل النظم، ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه » [4]

أما بالنظر إلى صاحب الشعر أو صاحب النثر، فقد رأى بعض النقاد أن الخلاف في تفضيل أحد الفنين على الآخر يسقط بتمكن أحدهما من الفنَّين معا، بحيث يُكتب له الكمال لجمعه بين وجهي البراعة جميعا شعرا ونثرا، وفي هذا يقول أبو هلال السعكري: « ومع ذلك فإنَّ من أكمل الصفات صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين، كما أن من أتمّ صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا » [5] وإن كان الكلاعي يستبعد أن يجتمع للإنسان التمكن من ناصية الشعر والكتابة معا، يقول في هذا : « ومن الدلائل على ذلك أن الكتابة والشعر شيئان متنافران، لتنافر طبائع أهلهما. ومن أمثالهم : ((اثنان قلما يجتمعان : اللسان البليغ والشعر الجيد)) » [6]

حقوق تأليف هذه المحاضرات محصورة للأستاذ الدكتور طارق زيناي

---

[1]– أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص33.

[2]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، مرجع سبق ذكره، ص 251.

[3]– المرجع نفسه، ص 256.

[4]– أبو حيان التوحيدي، المقابسات، مرجع سبق ذكره، ص 245- 246.

[5]– أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مصدر سبق ذكره، ص 138- 139.

[6]– أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، مرجع سبق ذكره، ص 39.